قراءات

قراءة في كتاب «حوارات في فهم النص وقضايا الفكر الديني المعاصر»*

الشيخ علي جابر

إن أصحاب الهرمنيوطيقا لم يتفقوا على تحديد واضح لماهيتها وأهدافها: فهل هي علم تفسير النص أو تأويله أو منهج للفهم، أو علم ظواهر الوجود وتحليل الفهم بما هو ظاهرة وجودية لها شروطها للتحقق؟

من هنا: "نحن لسنا أمام بنية فكرية واحدة متماسكة تطرح إشكاليات متناسقة، بل في مواجهة لون من الإشكالات والشبهات على ضوء فهم معين لمعنى الهرمنيوطيقا"... إنطلاقاً من هذه الرؤية يبدأ الشيخ علي جابر قراءته لكتاب الدكتور زهير البيطار "حوارات في فهم النص وقضايا الفكر الديني المعاصر".

* صادر عن دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٤ ، تأليف الدكتور زهير بيطار.

مقدمة:

أقدر في البداية للأستاذ الدكتور زهير البيطار الجهد الذي بذله مشكوراً ومأجوراً في معالجة مجموعة من المشكلات والقضايا الفكرية الحيوية. والتي تشكل بتأثيراتها المتعددة تحديات للإسلام والمنتمين إليه، كما تشكل تحديات للدين الإلهي بصورة عامة. وقد حاول، في حدود ما قرأت أن يعالج كل قضية برؤية إسلامية تأصيلية، ليؤكد قدرة الإسلام على تقديم الأجوبة على التساؤلات التي تطرح في كل عصر.

ونظراً لتعدد المواضيع وأهميتها، وتعذر تناولها جميعاً، فضلت التركيز على موضوع الفصل الأول، وهو حول فهم النص على ضوء الإشكالات التي تثيرها (الهرمنيوطيقا)، باعتبار أن هذا الموضوع يلعب دوراً تأسيسياً في العلاقة مع النص الديني، وبالتالي مع الدين نفسه، ولأن الإجابة وتحديد الرؤية لقضية الفهم والتفسير تشكل مدخلا ضرورياً في معالجة باقي المشكلات المطروحة.

ملاحظة أساسية:

هنا ملاحظة أساسية وهي أنه كان من المناسب ترتيب البحث في قسمين: الأول حول الإشكالات العامة للفهم، والقسم الثاني في المشكلات الدائرة حول فهم خصوص النصوص الدينية، نظراً للتمايز بين القسمين وكون القسم الأول يؤسس لمعالجة القسم الثاني مع ملاحظة الخصوصية الدينية (النص الوحياني). وهذا الترتيب يتناغم مع الاتجاهين الأساسيين للهرمنيوطيقا. دراسة وتحليل الفهم عموماً، وفهم النص الديني.

وبداية أيضاً فإن أصحاب الهرمنيوطيقا لم يتفقوا على تحديد واضح لماهيتها وأهدافها: فهل هي علم تفسير النص أو تأويله أو منهج للفهم، أو علم ظواهر الوجود وتحليل الفهم بما هو ظاهرة وجودية لها شروطها للتحقق؟

وعليه، فنحن لسنا أمام بنية فكرية واحدة متماسكة تطرح إشكاليات متناسقة، بل في مواجهة لون من الإشكالات والشبهات على ضوء فهم معين لمعنى الهرمنيوطيقا.

وقد بات واضحاً لكل متتبع في هذا الميدان أن أكثر الاتجاهات الهرمنيوطيقية تحدياً هي الهرمنيوطيقا الفلسفية الحديثة التي صاغها (مارتن هايدغر) وتلميذه (هانس غادامر).

لكن التحول الكبير الذي أدخلاه في فهم الهرمنيوطيقا أخرجها عن أصولها الراجعة إلى النص وشؤونه لتصبح فلسفة تسعى لفهم معنى الوجود عبر دراسة وفهم وتحليل الوجود الآني وهو الوجود الإنساني، وإن كان (غادامر) أكثر تركيزاً على ماهية الفهم وأركانه الأنطولوجية، وأقل توغلاً واشتغالاً في معنى الوجود على العكس من

(هايدغر).

وتطرح الهرمنيوطيقا الفلسفية سؤالين أساسيين في مجال المعرفة النصية:

الأول: معنى الفهم عامة، وفهم النص خاصة، وهل هو امتزاج أنق المعاني عند المعنى مع أنق معاني النص أم هو شيء آخر؟

السؤال الثاني: ما هي الغاية من قراءة النص؟ هل هي فهم مراد المؤلف أم تحديد الفهم الذي يصل إليه القارئ نفسه؟

إن من الضروري التسليم بحقيقة (هدفية النص) التي تستند إلى سيرة العقلاء في استخدام اللغة وإنشاء النصوص، والتي تستدعي إيلاء هذا الهدف والمقصد الاهتمام اللازم، منعاً من السقوط في اللغوية. وهذا ينسحب على البناء النظري الخاص لـ (هايدغر)، فإن النص إذا كان بنية وجودية يصل خلالها إلى فهم الوجود نفسه فإن اللامبالاة تجاه معناه المقصود هي نوع من العبثية التي تنافي سمو الوجود.

كما أن هذه الهدفية لا تلغي إمكانات الكشف عن معانٍ أخرى هي من ملازمات النص وإيحاءاته واستعداداته لتوليد معنى آخر كشأن ذاتي له قد لا يكون مقصوداً بالضرورة لمؤلفه بصورة مبكرة لكنه متاح للقارئ أيضاً.

وهذه النقطة الجوهرية نجدها حاضرة في المنهج التقليدي الديني عندما فرق بين (التفسير) و(التدبر). فالتفسير يثبت المراد الأولي من النص ويمنع من تضييعه عبر التفسير .

يقول العلامة الطباطبائي (قده) معرّفاً التفسير بأنه: «بيان معاني الآيات القرآنية والكشف عن مقاصدها ومداليلها».[1] فهو وإن كان في اللغة: «أخذ الشيء بعد الشيء»، لكنه في الاستخدام القرآني بمعنى «التأمل في الآية بعد الآية» أو «التأمل في الآية بعد التأمل». فالتدبر هو تأمل وتفكر في بعدين: عرضي يربط بين الموارد القرآنية المختلفة، وطولي يرتقي في المعنى ذاته.[2]

إن هذا التدبر يعكس مرونة واسعة في التعامل مع النص بفعل تزايد المعارف وتراكمها لدى الإنسان وتوسع مداركه واستعداداته العلمية.

وإن فهم الإنسان هو انفعاله مع ما يقابله وتعقله له أو علمه به. وبتعبير العلامة الطباطبائي: «انفعال الذهن عن الخارج عنه بانتقاش الصورة فيه».[3] ومعنى ذلك حصول العلم.

وحينما نأتي إلى النص مهما كان بسيطاً، فإن فهمه على مستويين:

المستوى الأول: هو تحديد مدلول النص بحسب الوضع اللغوي والاستخدام العرفي

للألفاظ، وهذا هو الفهم العادي والشائع بين الناس الذي بنوا على أساسه معاملاتهم وتفاهماتهم. وهذه اللغة تكون مفهمة للمعنى بشرط اجتماع ثلاثة عناصر عند المخاطب:

العنصر الأول:

١- دلالة الألفاظ المحددة على معانٍ محددة والحاصلة بتباني البشر على هذه الدلالات وارتباط اللفظ ورموزه بالمعنى ارتباطاً وثيقاً بحيث يكون حضور اللفظ حضوراً للمعنى.

٢- **العنصر الثاني:** هو مراعاة التركيب اللغوي وأساليبه الأدبية من المجازات والكنايات. فقد لا يكون المعنى اللفظي الوضعي مقصوداً، بل المجازي أو الكنائي بملاحظة القرائن المقالية.

٣- **والعنصر الثالث:** هو مراعاة القواعد المنظمة للغة لضمان سلامة الاستخدام وتمييز المعاني فيها، كالفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر ونحو ذلك.

إلى هنا، يفترض أن يصل المعنى المراد إلى المخاطب العالم باللغة وأوضاعها، فيفهمه دون دخالة أية خصوصية ذاتية أو زمانية أو مكانية، والفهم هنا يعني إدراك المعنى المدلول عليه في اللغة والذي وضع لأجله النص، ويضاف إلى المتكلم أو المؤلف بلا أدنى شبهة.

إن في أفق النص بحسب الدلالة اللغوية والعرفية ليس سوى معنى واحد ونهائي يتحدد من خلال العالم اللغوي نفسه.

المستوى الثاني: هو المعاني الاحتمالية الأخرى والتي تتفاوت درجة التثبت منها. ومعنى احتماليتها أن النص يتحملها على نحو الإمكان. ويمكن تظهيرها بفعل الذهنية الخاصة وإعمال القبليات في مقام حكمه الخاص على النص.

إن الفهم هنا يقوم بدور الإنتاج وتوليد المعنى من النص، وهو للنوع من الناس ممن يمارس التفكر في النص، والربط بين المعاني المفردة داخل النص ومع خارجه، وأيضاً ممن يتحقق بالمعنى أو مقارباته. ولا شك في أن للقبليات الذهنية والشعورية دوراً مهماً في هذا الاستيلاد. إن الفهم هنا ليس عادياً ويمكن أن نسميه بالفهم النوعي، لكنه ينبع من ذات النص وإن بدا في بعض الحالات أنه يذهب بعيداً. وبعبارة أخرى: إن هذه المعاني المتولدة تنتسب إلى النص ولو بتعدد الوسائط، وتحمل الكثير من خصوصياته. لكن موقف الهرمنيوطيقا الفلسفية مختلف بالكامل، فالمعارف القبلية للمفسر تلعب دوراً حاسماً في تحديد الفهم والتفسير، وتذهب إلى حد قطع الصلة

بالمؤلف وبالنص ومقاصده التي هي علل وجوده.

إن الادعاء والحال هذه أنها قراءة أخرى مختلفة كلياً للنص هو في غير محله؛ لأن فعله في الحقيقة ليس قراءة، بل إنشاءً جديداً للنص لكن بعنوان الفهم والتفسير، وهذا شأنه، لكن ليس من حقه أن ينسب المعنى الأجنبي إلى النص ومؤلفه.

إن من المشكلات التي تعاني منها الهرمنيوطيقا الحديثة على ما يبدو هي وزن العناصر الخارجية المتمثلة بالقبليات والنزوع الفلسفي إلى حد تغييب النص ذاته.

والواقع أن المخزون المعرفي والشعوري يؤدي دور المساند والمغذي لفهم النص مع المحافظة على الصلة بالمؤلف ومقاصده، فيعمق المعنى ولا يخالفه. وبعبارة أخرى يرفع من رتبة المعنى. فللمعنى الواحد في عين أنه واحد مراتب عدة لا تتخالف بالكلية وإن كان لها تمايز.

وإذا كان المعنى حقيقة وجودية، كما أن النص بألفاظه وحدة وجودية، فإن هذه الحقيقة الوجودية لها ظهور متعدد، وكل ظهور هو رتبة له بمعية خصوصية زائدة لتكون المحصلة شدة ظهوره من جهة، وسعة انطباقه الوجودية من جهة أخرى.

إن الاستيلاد يتحقق هنا في نفس النص ومن ذات المعنى الأول ليتحقق المعنى الثاني دون نفي التأثير الخارجي في عملية الاستيلاد. وبهذا يتضح أن القبليات وما هو خارج النص يؤخذ على نحو الشرطية لتوليد المعنى سواء باتجاه مقاربة الواقع أو مجافاته. وكلما كان النص محكماً في ألفاظه ومراميه، كلما كانت إمكانات الاستيلاد للمعنى أقوى.

وهذا ما يوضح حقيقة ما ذكره المفسرون مستفاداً من روايات المعصومين (عليهم السلام) من أن القرآن الكريم "لا حد لمعانيه" و "يجري مجرى الليل والنهار والشمس والقمر" و "لا تنفذ خزائنه" ونحو ذلك.

ختاماً يقول العلامة الطباطبائي قدس سره حول مراتب المعنى: "اشتمال الآيات القرآنية على معانٍ مترتبة بعضها فوق بعض، وبعضها تحت بعض، مما لا ينكره إلا من حرم نعمة التدبر" (٤).

الهوامش:

(١) - الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص ٤.

(٢) - راجع: المصدر نفسه، ج٥، ص ١٩.

(٣) - المصدر نفسه. ج٢، ص ٢٤.

(٤) - المصدر نفسه، ج٣، ص ٤٨.